رحلة الى نهر اليرموك

بلاد المدن العشر

نظر للاب الكسيس مالون مدرّس اللغة القبطيّة في المكتب الشرقيّ (تتمّة)

وفي صباح يوم السبت الواقع في ٢٢ نيسان غادرنا الحصن ميممين مُكيس (١ والحمّة وبعد ساعة مررنا بقرية اربد التي فيها يقيم قائمقام عجلون وهي اصغر من قرية الحصن . ثمّ واصلنا سيرنا الى بيت رأس فتذكّرنا خمرها الطيبة التي وصفها الشعراء. قال حسّان بن ثابت:

كأنّ سبيئةً من بيت رأس يكونُ مزاجَها عسلٌ وماء

وبيت رأس شهيرة بآثارها الجمّة لمدينة رومانية قديمة تدعى كابيتولياس ومنها انحدرنا الى معبر حرج يتّصل بـ « وادي العرب » وهو اشبه برياض نضرة تبسم على جانبيه الزهور وتزهو الخضرة الّا انهُ خلوٌ من السكّان وقد شعرنا فيه بحرارة عظيمة كادت النفس تبلغ منها التراقي

ونحو الساعة الواحدة بعد الظهر عطفنا الى اليمين ودخلنا في وادٍ صغير تسيل فيه عين صافية ليس غيرها في تلك الجهات ثمّ صعدنا الى مشرف تُرى في قمته قرية حقيرة مستحدثة تدعى مُكيس بيوتها نحو خمسين كوخًا من الطين تحجبها اشجار الصبّير انّما للشيخ وحدهُ دارٌ جديدة بناها بالأجر لها منظر حسن ومُكيس هذه هي مدينة غدارة (Gadara) او جَدَر القديمة وكانت مدينة عامرة زاهرة كما يؤخذ من آثارها الباقية حتى اليوم منها نواويس من الحجر البركاني الاسود الصلد بعضها ملقى على الارض وبعضها صُيّر اجرانًا تشرب منها الدوابّ او جُعل كقوائم للابواب. ومنها ملعبان كبيران تُعرف من بقاياها هندستهما القديمة وهيئتها الاصليّة.

ثمّ انحدرنا من مكيس على منعطف جبل شديد الانحناء حتى بلغنا بطن الوادي الذي يسيل فيه نهر يُدعى شريعة المناظرة وهو المعروف قديمًا بنهر اليرموك وكان الحرّ

١) وقد دعاها بعض الكتبة امّ قيس

قد احتدم علينا فبلغ اربعين درجة بالمقياس وكاد يحرقنا بأواره . وكان الجوّ مع توقّد الهواء رطباً فيزيد بذلك ضنكه . وكنت ترى قطيع البقر منغمساً في الماء حتى الرأس تلطيفاً للحرارة . وبعد ان قطعنا النهر وصلنا الى الضفّة اليمنى وسلكنا سبيلاً تمرّ في وسط الدفلى . ونحن كذلك واذا برائحة كريهة تنبعث من الامام فعبرنا مسيلاً ذا مياه مخضرّة في قاعها ويضرب جانباها الى الصفرة وكانت الرائحة كلّما تقدّمنا تزيد كراهةً ثمّ شعرنا بنفحات حارّة تتصاعد من عين هناك كانت مياهها تغلي وتبعث في الهواء لجرتها السخنة ولحظنا قرب العين اخربة جدران قديمة وآثار ابنية صبر على الدهر منها ابوابها وبعض قببها وغرفها

فكنّا نشاهد هذه الآثار ونحن في الحيرة والانذهال حتى عرفنا بعد قليل اننا بلغنا الحمّة الشهيرة بعيونها الكبريتيّة . امّا الردوم فهي آثار الابنية التي اقامها الرومان ليأوي اليها المستحمّون . وكان الرومان يدعون الحمّة باسم « اماثا » ويقصدونها ليتعالجوا بعيونها المعدنيّة . والعيون المنبجسة هنالك اربعة : الاولى هي التي مرّ وصفها تبلغ حرارتها ٤٧ درجة امّا الثلاث الأُخر فابينّ دونها حرارة لا يتجاوزن ٣٥° وهذه العيون غزيرة المياه تنبجس بوفرة كنبع اتطلياس . ولها خواصّ علاجيّة غريبة لاسيّما في مداواة الامراض الجلديّة وارجاع المفاصل وهي مع ذلك مهملة لا ينتفع بها الّا بعض قطين القرى المجاورة يقصدونها للاستحمام بها مدّة شهر او شهرين في اذار ونيسان . امّا قلّة طالبيها فلبعدها عن الطرق المسلوكة وخلوّ جيرتها من المنازل الموافقة للسكن . وكان الذين يأتونها لا يدفعون شيئاً للاستحمام بها . الّا ان ادارة سكّة حيفا الحديديّة قد عوّلت على استثمارها بعد اشهر وفي نيّتها ان تبتني هناك نزلاً يحتأُه المستحمّون فتقرّب عليهم وسائل العلاج . ونحن نتمنّى لهذا المشروع نجاحاً تامّاً ولا نشكّ ان يزيد الاقبال على هذه الحمّامات اذا أُحسن تدبيرها وتوفّرت فيها اسباب الراحة لقاصديها . وعمّا قليل ستبنى هناك محطّة للسكّة الحديديّة

فلنعودنّ بعد هذا الاستطراد الى وصف رحلتنا . كان وصولنا في عصر ذلك النهار الى مقام مهندسي السكّة الحديديّة الذين كانوا في انتظارنا فرحّبوا بنا ايّ ترحيب واتزلونا عندهم مكرّمين مثوانا . وكان في غد عيد الفصح المبارك فأُصلحت الغرفة الكبرى واقيم مذبح قرّب عليه الذبيحة الالهيّة حضرة الاب لامنس وكان عمّال السكّة

الكاثوليك قد تلقوا خبر حضور احد الكهنة بفرح فاسرعوا الى اقام فرائض دينهم

ثمَّ صرفنا النهار متجوّلين في ذلك الوادي الذي ليس كمثله ثانٍ في بلاد الشام وفيه ما خلا العيون المعدنيَّة ضروب من النبات والاشجار التي لا تُحصل عليها في جهات أُخرى الَّا بالعناء. وهي تنبت هنا عفوًا بينها اشجار مثمرة كالنخل والتين والرمّان وانواع البقول التي يجتنيها العمّلة لقوتهم. اما المنظر فهو غاية في الحسن تبصر العين جنوبًا الاكام النضرة التي تعارها مُكيس وشمالًا الصخور الشاهقة التي تنتصب عموديًا في علوّ مئات من الامتار. اما شرقًا وغربًا فانَّ البصر ينفذ بين عطفات الجبال واعماق الاودية. واعلم انَّ هواء الحمّة طيّب في الشتاء والربيع لكنَّهُ في الصيف ثقيل الوطأة بحرارته التي لا تُطاق لانَّ موقعها تحت سطح البحر بنحو ١٧٠ مترًا

اما النهر الذي عندها فكان قدماء اليونان يدعونهُ هيرومَكس وقد اشتقُّوه من اسمهِ الآراميّ القديم يرموك وهو يُدعى اليوم باسم « شريعة المناظرة » افرازًا لهُ من اسم الاردن المسمَّى بنهر الشريعة الكبير. وقد عُرف بالمناظرة نسبةً الى قبيلة بني منظور كانت تسكن بقربهِ وهي اليوم قد هاجرت الى جهة اخرى منذ المباشرة باعمال السكَّة الحديديَّة

وفي اليوم التالي وهو الاثنين ٢٤ نيسان توجَّهنا من الحمّة لزيارة بحيرة طبريَّة الواقعة على مسافة ساعتين منها وقد اجتزنا في طريقنا على قرية سماخ الصغيرة ثمَّ جارينا في سيرنا خطّ السكَّة الحديديَّة جنوبًا حتى بلغنا الجسر الممدود فوق اليرموك قبل مصبّهِ في نهر الاردن وهو الجسر الصغير. اما الجسر الكبير فتحتهُ على مسافة كيلومتر واحد يدعونهُ جسر الجامع. ثمَّ اثنينا راجعين عند الماء على ضفَّة اليرموك اليمنى

*

وهنا يجدر بنا ان نذكر ما يختصّ بالخطّ الحديدي الذي تقوم بعملهِ الدولة العليَّة ويتولَّى صنعهُ المهندسون والعملة وعلى طريقهِ سنعود الى دمشق (انظر رسمهُ في الخارطة التي نشرناها في العدد السابق ص ٥٢٥)

قد انتهت اعمال هذه السكَّة من حيفا الى الاردنّ وعليها تسير القُطُر قانونيًا ثلاث مرَّات في الاسبوع. وهي بعد خروجها من حيفا تجري على شواطئ نهر المقطع فتبلغ الى الفولة حيث أُنشئت محطَّة للناصرة ونواحيها على عشرة كيلومترات منها. ثمَّ تنحدرُ الى

بطاحا الاردن حتى تكاد تبلغ بيسان . واذا انتهت الى قربها عرجت الى الشمال وعبرت النهر على جسر معدني جميل وهو جسر الجامع الذي موقعه على مقربة من الجسر الروماني القديم . وقطارات السكة تقطع حالًا المسافة بين حيفا والجسر المذكور بثلاث ساعات فتخرج من حيفا الساعة الثامنة صباحًا وتبلغ جسر الجامع في الحادية عشرة . ثم تقف ساعة عن المسير وتعود الى حيفا في ظهر النهار

وفي ما وراء جسر الجامع يتبع الخطّ ضفّة الاردن الشرقية فيقطع اليرموك على الجسر الصغير وهو ايضًا جسر معدني يبلغ سطحهُ ٥٠ مترًا ثم يتّجه قدمًا الى سماخ على طرف بحيرة طبريّة وهناك تُشيَّد محطّة ثمّ تجري السكّة شرقًا فتتخلّل وادي اليرموك سائرةً على احدى ضفّتيهِ اما على اليمنى واما على اليسرى ثمّ ترتقي شيئًا فشيئًا حتى تبلغ تلّ الشهاب ومنها تلحق بسكّة الحجاز بعد حيادها شمالًا عن سكّة الشام على مسافة كيلومتر من الزيريب . وبين السكّتين وصلة . اما سكّة الحجاز فتسير الى درعة ومنها الى معان حيث انتهى مدّ الاسلاك . والمسافة بين حيفا ودرعة ١٨٠ كيلومترًا اما اشغال السكّة فتنقسم الى ثلاثة اقسام طول كلّ قسم ٦٠ كيلومترًا ولكل قسم ثلثمئة انصبة يقوم بعمل كلّ منها ثلاثة ملتزمين . والملتزمون تحت نظارة مهندسين خصوصيين وهؤلاء يحكم عليهم مهندس سكّة حيفا الى درعة وهذا المهندس عينهُ تحت امر مهندس سكّة الحجاز الذي يقيم حالًا في درعة

وعمّال هذه السكّة من مهندسين وملتزمين وفعلة يتسابقون الى العمل في خدمة الدولة العلية . واهل القرى المجاورة يشتغلون بالاعمال الصغرى . والجنود الشاهانيّة تمدّ الاسلاك وبينهم فرقةٌ لحفر الخنادق . واذا جُمع عدد المشتغلين بهذه السكّة من حيفا الى درعة بلغ عشرة آلاف نفس . وقد انتهى القسمان الطرفيّان عند الاردن وعند درعة . اما القسم الاوسط في وادي اليرموك فيحتاج الى اشغال عظيمة الّا انّ العمل جارٍ على قدم النشاط وفي محالّ عديدة ترى الفعلة يشتغلون ليلًا مع نهار لان موعد نهاية الخطّ في غرّة شهر ايلول ليُفتتح في عيد جلوس الذات العلية الشاهانيّة

وبعد هذا النظر العمومي في مسير هذه السكّة دونك بعض ملحوظات تبيّن خطر هذا العمل وسموّ شأنهِ . اعلم انّ تخطيط هذه السكّة في وادي اليرموك مباشرةً من غور الاردن الى تلّ شهاب والقيام بأعمالها مع كثرة مشاقها وعقباتها لمّا يُخطي المهندسين

بالاسم الطيب ويجدي فضلاً كل من سعى باخراج العمل الى حيّز الوجود. والحقّ يقال انّ اختيار المهندسين لهذا التخطيط في منعطف وادٍ كثير الصخور صعب المنحدر عميق الاهوية ذي تعريجات وتوريبات متعدّدة بين الجبال يدلّ على قوّة نفس واقدام عجيبين فما قولك بانجاز هذا العمل بعد وضع رسمه ؟ وقد سمعنا احد المهندسين يقول لنا : « لمّا اردنا اجراء الاقيسة اللازمة لتخطيط هذا الخطّ كنّا نعلق الحبال فنعتصم بها لوضع الأعلام ودقّ الاوتاد. فكم تجشّمنا من الاتعاب وقاسينا من الشدائد لنقل ادوات الشغل ولوازم البناء كالخشب والبارود والكلس وكان اوّل ما باشرنا به توثير الطرق للعجلات او على الاقلّ لسير الابل ». ولعمري انّ الفرائص ترتعد اذ ينظر الناظر ما أنهج من المسالك بين الصخور وفي مضايق الجبل وفوق الامكنة المشرفة على الأهوية. وكانت هذه المصاعب كلا شيء بالنسبة الى مدّ اسلاك السكّة الحديديّة بعد تمهيد الطرق وتسويتها وتجهيز العوارض فيها ليكون الخطّ ساوياً ذا انحدار قانوني مستقيم الوجهة. وهذا لم يمكن نوالهُ الّا بالالتجاء الى الوسائل البنائيّة المستحدثة من قناطر واسراب وخنادق وتبليط وجسورة معدنيّة. واغرب هذه الاعمال من حيث الصناعة الهندسيّة القناطر المتعدّدة التي بنيت في وادي اليرموك فانّ عشرين منها لا يقلّ طولها عن ٥٠ متراً على علوّ مناسب واقصرها لا ينقص عن ٤٠ متراً ومنها ما يبلغ مئة متر بل ١٥٠ متراً. وان سأل القارئ وما السبب لابتناء كل هذه القناطر اجبنا انّ السكّة لا يمكنها ان تجري زمناً طويلاً على ضفّة واحدة من النهر فربّما بلغت صخوراً صلدة لا يمكن قطعها فتعود على قنطرة الى الضفّة الاخرى فتجري هناك مدّة حتى تصادف في وجهها صخوراً غيرها او تربة غير ثابتة فترجع الى الضفّة الاولى. وهكذا تنتقل من ضفّة الى اخرى على القناطر الممدودة فوق ذيّاك الوادي الكثير الحطّات. ومنظر هذه السكّة بديع يروق للناظر. ومتى تمّت السكّة في الخريف القادم سيلقى المسافر بين حيفا ودرعة من البهجة ما يندر مثلهُ بحيث يجد من وفرة الرؤى وتعدُّد المحاسن الطبيعيّة ما لا يكاد يشبع منهُ نظرهُ

وقد أتيح لنا مدّة اربعة ايّام من يوم الاحد ٢٣ نيسان الى الخميس ٢٧ منهُ ان نسرّح ابصارنا في هذه المشاهد الغريبة وكان المهندسون يظهرون لنا من اللطف ما يطمعنا في فحص كل خواصّ هذه السكّة وتتبع بصرنا بحاسنها. وفي يوم الخميس عند

خارطة
جنوب سوريا

الظهر وصلنا الى محطة المزيريب فركبنا منها القطار الى دمشق شاكرين للعزّة الالهيّة ما منحتنا في هذه الرحلة من اسباب المسرّات

نبذة

في تاريخ جزيرة مالطة

مأخوذة بتصرف عن بعض الثقات المدققين والمحدثين المحققين

بقلم حضرة الاب الفاضل الخوري جرجس السبلاني

انهُ بمناسبة اقامتي في جزيرة مالطة رأيت من المناسب ان ازفّ الى ابناء جلدتي السورية قرّاء مجلة المشرق الكرام هذه النبذة وانا على يقين من انّها تصادف حسن القبول عالماً مني بان انفسهم تشوق الى استماع شيءٍ عن احوال هـذه الجزيرة التي اخذت دوراً مهمًّا في غابر الزمان وحاضره رغماً عن صغرها. فابدأ وبالله المستعان

(تعريفها) يطلق اسم مالطة على ثلاث جزر واقعة في نصف البحر المتوسط. تبعد عن جزيرة صقلية ٨٥ ميلًا بميلة الى الجنوب. وتبعد عن افريقية ١٤٢ ميلًا. اكبر هذه الجزر مالطة ثم غودش (كولوس) المسماة الآن غوزو. وتبعد عن مالطة ٥ اميال. ثم كنونة وهي اصغر منهما وموقعها بينهما

(مقياسها) طول هذه الجزيرة ١٧ ميلًا. وعرضها ٩ اميـال. وسطحها ٩٥ ميلًا مربعاً. وسطح غودش يقارب العشرين ميلًا مربعاً. واما سطح كنونة فلا يزيد عن ميل واحد مربع

(هيأتها) انك حينما يقع بصرك على الخارطة المرسومة (عدد ١) لا يخالجك ادنى ريب في انّها تشبه شبهاً تامًّا حوتةً. فها هـ رسى شلوق. وذنبها المرفأ وقسم من الملّاحة

(تفسير اسمها) لقد تضاربت الآراء واختلفت الاقاويل والتآويل في اشتقاق اسم مالطة. فمن قائل انها كلمة يونانية تعني العسل لجودته بها. وآخر انها كلمة عربية شُقّت من فعل مَلَطَ لطلوها من الاحكام والاعراج فهي ملطاء. وفريق آخر يشتقها